مشدوداً الى وراء... وفيما بعد، عندما أخذوني الى التحقيق، رأيت الرجل العجوز ثانية. لم يكن مربوطاً، بل جثة هامدة تحت الشمس مع ثلاثة آخرين، كانوا، جميعاً، أمواتاً في كومة واحدة، وقد تشابكت اطرافهم بلا حراك. وكانت الجثث بدأت تنتفخ من حرارة الشمس» (ص ٥٥ ـ ٥٦).

ولم يكن مستغرباً ان تثير هذه الاعمال، كلها، بما فيها دمغ الأهالي على أذرعهم للتأكد من انهم «مرّوا» بعملية التحقيق والتعريف على هوياتهم، صوراً من الماضي القريب في معسكرات الاعتقال النازية. وأثير السؤال لدى صلاح التعمري: كيف يستطيع شعب قاسى، في الماضي، أهوال المعتقلات النازية ان يمارس المعاملة ذاتها تجاه شعب آخر أعزل؟ لا بدّ ان هذا السؤال زادت في حدّته حقيقة ان معاناة الشعب اليهودي، وغيره، من أهوال النازية، خلال الحرب العالمية الثانية، لا يتحمّل مسؤوليتها، اطلاقاً، الشعبان، الفلسطيني واللبناني، في حين ان الجيش الاسرائيلي هو المسؤول عن كل ما حصل خلال حرب العام ١٩٨٢، في جنوب لبنان.

في التاسع عشر من حزيران (يونيو) ١٩٨٢، أصبح صلاح التعمري في عداد الأسرى الفلسطينيين، بعد ان بات العثور على مكان للاختباء، أو تجنّب القوات الاسرائيلية أمراً شبه مستحيل. وفور اعتقاله نقل الى «معمل الصفا للفواكه» حيث كان آلاف الموقوفين يعانون من العذاب أياماً طويلة.

«أنصار للفجر تغنّي»

احتلت الفترة التي قضاها صلاح التعمري قيد الاعتقال الجانب الأكبر من اهتمام الكاتبة، التي تناولت، بالتفصيل، اوضاع المعتقلين، والظروف القاسية التي عاشوها، والحرص الدائم لدى المسؤولين بينهم، على المحافظة على روح التحدي والانضباط والتعاون والموقف الموحّد في مواجهة سلطات الاعتقال. فقد كانت المهمة الاولى التي واجهت صلاح التعمري في معسكر الاعتقال «أنصار»، بعد قضاء حوالى ثلاثة شهور في مركز الاعتقال في الخضيرة، وهو احد المراكز التي لا تخضع لرقابة الصليب الاحمر الدولي، لأن اسرائيل، بكل بساطة، تنكر وجودها، جمع المعلومات الاساسية عن بقيّة المعتقلين معه، والمباشرة بايجاد هيكل من التنظيم لضبط الامور اليومية في المعسكر. ولكن، وقبل الانتقال الى التحدث عن معتقل «أنصار»، فاجأتنا الكاتبة بحدث غير متوقع، اتخذ، فيما بعد، على صفحات الكتاب وفي حياة الاشخاص ذوي العلاقة، ابعاداً انسانية درامية للغاية. فقد أجرى محرر الاخبار العربية في اذاعة اسرائيل وأول ملحق صحافي في سفارة اسرائيل في القاهرة العام ١٩٧٩، اهارون بارنياع، مقابلة اذاعية مع صلاح التعمري بعد حوالى اربعين يوماً من اعتقاله. وكان ذلك الحدث، الذي تطوّر في الواقع الى جلسة تعارف طويلة بين الاثنين، بداية صداقة قوية بين العائلتين، تطوّرت عبر لقاءات متعدّدة داخل الوطن المحتل، وفي القاهرة، وفي لندن*.

امّا فترة اعتقاله في سجن الخضيرة، التي قضاها التعمري في زنزانة انفرادية، كان يُعاد اليها بعد نقله الى «أنصار» كلما كانت هناك حاجة الى «التأديب»، أو فرض المزيد من أجواء الارهاب والضغط على نفوس المعتقلين، فقد نقلت الكاتبة ما يلي على لسانه:

«ان أشد العواصف صخباً لا يحدث في البحار البعيدة، بل في عقل الانسان. تذكرت احدى المسيرات، قبل حوالى عشر سنوات، عندما كنت مع بعض الرفاق نجتاز جبال الجنوب اللبناني. كان الهواء شديد البرودة، بحيث كدنا ان نتجمّد. قلت لواحد منهم: 'لماذا نتخيّل، دائماً، ان جهنم هي نار ولهب، تزدحم بكتل من البشر يصرخون من شدة الحرارة؟ في هذه الليلة بتّ اعتقد بأن جهنم باردة، بدون لهب ولا نيران'. أتذكر ابتساماتهم وطلبهم ان أكفّ عن فلسفة ما كنّا نعانيه من مشقة. ولكن، في هذه الزنزانة، اصبحت أعتقد بأن جهنم لا تزدحم

* تفاصيل هذه اللقاءات، وغيرها من الاحداث المرتبطة باعتقال صلاح التعمري، تحدث عنها اهرون بارنياع، بمشاركة زوجته عماليا، في كتابه، بالعبرية، **الوقوع في الأسر**، تل ـ أبيب: عدنيم ـ يديعوت احرونوت، ١٩٨٦. كما نشرت ترجمة حرفية له بالانكليزية تحت عنوان: *Mine Enemy*, London: Peter Halban Publishers Ltd 1989